ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

والشهر : هو دورة القمر كما هو معلوم ، ونحن نعرف أن الكون فيه شمس وقمر وفيه نجوم ، هذه هى الأشياء المرئية لنا ، وهناك كواكب أخرى بعيدة عنا تستطيع أن تأخذ مليون شمس فى جوفها ، كل هذا يعطيك فكرة عن مدى اتساع الكون ، فلا تعتقد أن الشمس هذه موجودة بذاتها، بل هى تأخذ أشياء من كواكب أعلى منها كثيرة ، ولكن ما نراه بأعيننا محدود ، وهناك ما لا يمكننا أن نراه؛ لأنه غير منظور لنا. وأنت إذا نظرت إلى مصباح كهربائى، فنور المصباح ليس ذاتياً، بل إن وراءه أجهزة كثيرة تمده بالكهرباء من أسلاك وكابلات وأكشاك، ثم محطة توليد الكهرباء التى تولد التيار الكهربائى، ثم المصانع التى أنتجت الآلات التى تعمل فى محطة الكهرباء، إذن: فوراء هذا المصباح الصغير حجم هائل من العمل والأجهزة المختلفة.

ونحن نرى الشمس فيها ضياء ، والقمر فيه نور ، فما الفرق بين الضياء والنور؟

الضياء: فيه نور وفيه حرارة. والنور : فيه ضوء وليس فيه حرارة. ولذلك

يسمون ضوء القمر «الضوء الحليم» ، أي : أنك عندما تجلس فى ضوء القمر لا تحتاج إلى مظلة تحميك منه، ولكن إن جلست تحت ضوء الشمس فأنت تحتاج إلى مظلة تحميك من حرارة الشمس الشديدة.

والحق سبحانه وتعالى يسمى الشمس سراجاً وهَّاجاً ، والسراج فيه حرارة وفيه ضوء. أما القمر فسماه منيراً ؛ لأن أشعة الشمس تنعكس عليه فينير ، وهذان الكوكبان العلويان - الشمس والقمر - وضع الله فيهما موازين الزمن. والزمن له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات مختلفة ، وأساس الزمن هو اليوم والليلة، وأساس اليوم هو صباح وظهر وعصر ومغرب ، وهناك الفجر الصادق والفجر الكاذب والشروق ، وهناك أوقات يتساوى فيها الشيء وظله، وأوقات يكون الظل مثْلَيْ الشيء. والليل فيه الظلام، ويأتى بعد النهار والليل - فى مقاييس الزمن - الشهورُ ، وبعد الشهور تأتى السنوات.

إذن : فمقاييس الزمن محتاجة لآلات تقاس بها، وأنت تعرف بداية اليوم بشروق الشمس. إذن فالشمس معيار اليوم. وأنت تعرف بداية الليل بغروب الشمس. وهكذا فالشمس تعطينا بداية ونهاية الليل والنهار ، ولكنها لا تعطينا شيئاً عن الشهور ، فإذا نظرت إلى الشمس فإنك لا تعرف هل أنت فى أول الشهر أو فى منتصفه أو فى آخره. ولكنك إذا نظرت إلى القمر عرفت، ففى أول الشهر يكون القمر هلالاً ، وفى منتصفه يكون بدراً ، وفى آخره المحاق[1]. والشهور عند الله اثنا عشر شهراً.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان، ويجعله خليفة فى الأرض؛ خلق له كوناً مُعَدّاً إعداداً حكيماً لاستقباله ، فقدَّر فى الأرض الأقوات وجعل الشمس والقمر وأنزل المطر ، فكل ما يقيم حياة الإنسان كان

(١) المحاق : آخر الشهر إذا امحق الهلال فلم يُر. وهو أن يَسْتسرَّ القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية. قال ابن الأعرابى : سمى المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته ، فلم يره أحد. انظر لسان العرب (مادة محق).

موجوداً فى الكون قبل أن يأتى الإنسان إليه. والإنسان جعله الله خليفة فى الأرض وله حركة، وهى الأحداث التى تقع منه أو تقع فيه أو تقع عليه، والأحداث تتطلب زماناً ومكاناً، ولذلك خلق الله لها الزمان والمكان. إذن: فالحياة كلها تفاعل بين حركة الإنسان الخليفة وبين الزمان والمكان.

وكما أعدَّ الله سبحانه وتعالى للإنسان فى كونه مقومات حياته اليومية.. أنزل له القيم التى تحفظ له معنويات حياته، وأراد بها الحق سبحانه وتعالى أن تتساند حركة الإنسان ولا تتعاند، ومعنى التساند أنْ تتحد حركة الناس جميعاً فى إيجاد النافع لمزيد من الإصلاح فى الأرض، أما إن تعاندت حركات البشر ضد بعضها البعض، فإن الفساد يظهر فى الأرض؛ لأن كل واحد يريد أن يهدم ما فعله الآخر.

ولكى تتساند حركات الإنسان فى الكون؛ فلا بد من مُشَرِّع واحد - وهو المشرع الأعلى - يعطى قوانين الحركة البشرية لكل الناس. وإن ابتعد الناس عن تشريعات الله تعالى، وأخذوا يقنِّنون لأنفسهم، نجد قوانين البشر تتبع أهواءهم، وكل واحد يحاول أن يحصل على مَيْزات لنفسه، ويأخذ حقوق الآخرين؛ فتفسد الحياة، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]

إن اتباع الحق لأهوائهم سيُخضِعُ الكون لأهواء البشر، هذا يريد وهذا لا يريد، والحق سبحانه يريد فى الكون حركة السلام والأمن والاطمئنان، وهذه لا تتم إلا إذا التزم كل إنسان بمنهج الله؛ حينئذ يوجد سلام دائم ومستوعب شامل، مستوعب لسلام الإنسان مع نفسه، ولسلام الإنسان مع الكون، ولسلام الإنسان مع الله، لكن الإنسان الذى خلقه الله مُخيَّراً وأنزل له المنهج بالتكليف، فى إمكانه أن يطيع هذا المنهج أو أن يعصيه. وإن عصى الإنسان المنهج فهو يفسد فى الأرض وينشر فيها الظلم والفساد.

وأراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضماناً ، وهو أن توجد قوة تقف أمام الفساد فى الأرض ؛ لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود فى هذا الكون ؛ لتتصارع الإرادات ، فما دام للإنسان اختيار ، وما دام هناك من يعصى ومن يطيع ، فلا بد أن يحدث الصراع . أما الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها فهى لا تعكر السلام فى الكون ، فلن تقوم ثورة - مثلاً - لكى تشرق الشمس ، أو تشتعل حرب لإنزال المطر ؛ لأن هذه الأمور تسير بقوانين القهر التى أرادها الله لها ، وتعطى نفعها للجميع ، ولكن الفساد يأتى من انحراف الناس عن منهج الله ، وما دام فى الكون حراس للمنهج من البشر ، بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم [1] ؛ فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى . ولكن إن عَمَّ الفساد ، ولم يوجد فى المجتمع من يقف ضده تعاندت حركات الحياة وتعب الناس فى حياتهم وأرزاقهم .

ولكى يسود السلام فى الكون ؛ وضع الحق سبحانه فى الزمن وفى المكان حواجز أمام طغيان النفوس ؛ عَلَّها تفيق وتعود إلى الحق ، فجعل فى الزمان أشهراً حُرماً يمتنع فيها القتال ، ويسود فيها السلام بأمر السماء ، وأراد الحق أن يكون هذا السلام القسرى فرصة تجعل هؤلاء المتحاربين يفيقون إلى رشدهم وينهون الخلاف بينهم ، كذلك خصَّ الله بعض الأماكن بتحريم القتال فيها ، فإذا التقى الناس فى هذه الأماكن كانت هناك فرصة لتصفية النفوس وإنهاء الخلاف .

(١) عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣ ، ٢٦٨٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح ، وانظر شرح ابن حجر العسقلانى لهذا الحديث فى فتح البارى (٥/ ٢٩٥ ، ٢٩٦) ففيه كلام قيم جداً .

والإنسان فى حربه مع أخيه الإنسان يُنهك بنيران ونتائج الحرب ، تنهكه دماً ، وتنهكه مالاً ، وتنهكه عتاداً ، ويصيب الضعفُ الإنسان نتيجة هذه الإنهاكات منتصراً كان أم مهزوماً ، ولكنه أمام عزة نفسه فى مواجهة خصمه يريد أن يستمر فى الحرب حتى لا يظهر أمام الخصم بأنه قد ذُلَّ . فيشاء الله برحمته لخلقه أن يجعل فى الزمان وفى المكان ما يحرم فيه القتال ؛ حتى لا يقال: إن قبيلة ما أو جماعة ما قد أوقفت القتال خوفاً من خصومها ، أو لأن خصومها هم الأقوى ؛ ولكن ليقول الناس: إنهم أوقفوا الحرب بأمر الله.

وبهذا يحتفظ كل طرف من الأطراف المتحاربة بكرامته ؛ فيسهل الصلح وتسلم الأرواح والنفوس.

وكذلك إن لجأ واحد من المتحاربين إلى المكان أو الأماكن التى يحرم الله فيها القتال ،أمن على نفسه ، وفى هذا منع للشر أن يستمر ، وصون للنفوس من المهانة والذلة والانكسار أمام الغير ؛ لذلك أراد الله أن يوضح لنا: أنا خالقكم ، وأنا الرحيم بكم ، وسأجعل لكم من الزمان زماناً أحرم فيه القتال ، وأجعل لكم مكاناً مَنْ دخله كان آمناً ، فاستتروا وراء ذلك وكُفُّوا عن القتال.

وهذه هى بعض من رحمة الله ، يعطى بها سبحانه للناس فرص الحياة ، وهذا من عطاءات الربوبية ، وعطاء الربوبية من الله هو لخلقه جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والطائع والعاصى ، وكل نعم الكون من عطاءات ربوبية الله.

إن عطاءات الله سبحانه لا تفرق بين المؤمن والكافر ، فالأرض مثلاً لا تعطى الزرع للطائع وتمنعه عن العاصى ، والشمس لاتضىء وتسقط دفئها وحرارتها للمؤمن دون الكافر ؛ فَنِعَمُ الكون المادية كلها من عطاء ربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه.

الأسباب - إذن - هى للناس جميعاً ، ولهم أن يتخذوا الأزمان المواتية لحركة الحياة كما يحبون ، فيسيرون الزراعات على أى تقويم ، ويحددون المواسم على حسب ما يفيدهم ، وهم يحددون بذلك مصالحهم المادية التى هى من عطاء الربوبية . ولكن الله رب قَيِّم ، ولذلك فهناك عطاء ألوهية لله فى المنهج الذى أرسل به الرسل للناس فأوضح : أنا أختار الزمان الذى أجده مناسباً للقيم والمعانى السامية ، وأختار الأماكن المناسبة للقيم والمعانى السامية .

وأراد الحق برسالة محمد ﷺ أن يشيع اصطفاء المكان والزمان لكل الزمان والمكان .

والشهور والأزمان عند الله هى اثنا عشر شهراً ، وما دام قد قال : ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، فهناك "عند" غير الله ؛ وهناك « عند » الناس .

وأوضح سبحانه لخلقه : قَدِّروا أزمانكم بمصالحكم ، وهذا ما يحدث فى الواقع المعاش . . إنك تجد من يزرع حسب التقويم القبطى ، حيث تكون شهور الصيف فيه ثابتة ، وكذلك شهور الشتاء والربيع والخريف ؛ لأن التقويم القبطى قائم على التقويم الشمسى .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد للقيم أزماناً مخصوصة ؛ لذلك قال : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ وأوضح سبحانه : لا تجعلوا زمن القيم كالأزمان التى تجعلونها لمصالحكم .

وأراد الله سبحانه أن تعم القيَم كل الزمن ، ولا تكون مقصورة على أزمان معينة ، ولذلك اختار سبحانه أزماناً للصلاة مثلاً ، فصلاة الصبح لها وقت ، وصلاة الظهر لها وقت ، والعصر لها وقت ، والمغرب لها وقت ، والعشاء لها وقت . ولكن أوقات الصلاة رغم أنها محددة فهى تشمل

الزمن كله ؛ فالصلاة تقام مثلاً فى أسوان ، وبعد دقائق فى الأقصر ، وبعد دقائق فى القاهرة ، وبعد دقائق فى الإسكندرية ، ثم تتدرج إلى دول أوربا ، وهكذا . فكأنها لا تتوقف عند فترة معينة ، بل هى مستمرة حسب اختلاف الأوقات فى الدول المختلفة ، فصلاة الفجر - على سبيل المثال - قبل شروق الشمس. والشمس تشرق فى كل دقيقة على بقعة مختلفة من الأرض. فكأن الصلاة دائمة على سطح الأرض. بل أكثر من ذلك نجد أننا فى الوقت الذى نصلى فيه نحن الظهر ، قد يصلى غيرنا العصر فى شمال أوربا ، والمغرب فى أمريكا ، والعشاء فى كندا مثلاً ، فكأن الصلاة تقام فى كل وقت على ظهر الأرض ؛ ذلك لأن الكون كله مُسبِّح لله.

ونأتى بعد ذلك إلى اختيار الله ليوم وقفة عرفات ، ولشهر الصوم وغير ذلك من الأوقات ، فشهر رمضان يأتى مرة فى الصيف ، كما يأتى فى الشتاء وفى الربيع ، وفى الخريف . كذلك الحج يأتى فى فصول السنة المختلفة . وهكذا شاء عدل الله أن تكون الأيام المفضلة عنده مُوزَّعة على الزمن كله . وجعل الحق سبحانه وحدة الزمن هى اليوم ، واليوم يتكون من الليل والنهار ، والأيام وحدتها الشهر ، والشهور وحدتها العام ، وجعل من مهمة الشمس أن تحدد لنا اليوم ، ومن مهمة القمر أن يحدد لنا الشهر ؛ فهو فى أول الشهر هلال ، ثم تربيع أول وتربيع ثانٍ فبدْر إلى آخره . إذن فالقمر هو الذى يحدد بداية الشهر ونهايته.

ولقد حدد الحق سبحانه شهور العام ، فقال:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وقال : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ .

ولكن لماذا لم يجعل الحق كل الأشهر سلاماً ؟ نقول: إن الحق فى تشريعه أراد أن يسود السلام ، ولكن الحرب أيضاً قد تكون سبباً لتحقيق

السلام ، فليس كل إنسان أو مجتمع يسير على الجادة ، فمن الممكن أن تخرج جماعة عن الجادة ، و لهذا لا بد من قتال تلك الجماعة ، ولا بد كذلك من وقفة للخير أمام الشر ، وما دام الإنسان له اختيار ؛ فقد يسير فى اختياره إلى ناحية السوء ؛ لذلك لابد أن يضرب المجتمع على يد المسيء ، وإذا ما اختارت دولة قتال دولة أخرى اعتداءً ، فالحرب ضرورة للدفاع . وكذلك لو أن الحق قد جعل العام كله أياماً حُرُماً لأذلَّ الكفار والمشركون المؤمنين ؛ لأن الكفار والمشركين سيعصون الله ويحاربون ، والمؤمنون ملتزمون بأمر الله ، فكأن الله قد فرض العبودية على المؤمن به . وأعطى السيادة لغير المؤمن. ثم إن قوى الخير والشر تتصارع فى هذا الكون ، وقوى الحق والباطل تتقاتل ، ولابد من وقفة للحق أمام الباطل ، ولذلك أباح الحق فى الأشهر الحرم القتال ، حتى إذا استشرى الباطل تصدى له الحق بالقوة ، ولذلك قال شوقى:

الحرْبُ فى حَقٍّ لَديْكَ شريعةٌ

ومنَ السُّمُومِ النَّاقعَاتِ دَوَاءُ

إذن : فقد شاء الله أن يوجد من يقاوم الباطل ، وضمن للحق أن يحارب الباطل ويواجهه ؛ لذلك لم يشرع تحريم القتال فى العام كله. ولكنه شرع هذا التحريم فقط أربعة أشهر يذوق الناس فيها حلاوة السلام ويتوقف فيها القتال وتتاح الفرصة للصلح.

ولقد أوجد سبحانه فى الكون سُنَّة ، هى أنه إذا ما التقى حق وباطل فى المعركة فالباطل ينهزم فى وقت قصير . وإن رأيت معركة تطول سنوات طويلة فاعرف أنها بين باطل وباطل ، وإذا قامت الحرب بين باطل وباطل فإن السماء لا تتدخل ، وأما إذا قامت المعركة بين حق وباطل فإن السماء تنصر الحق على الباطل . ولا تقوم معركة بين حَقَّيْن أبداً ؛ لأن الحق

فى الدنيا كلها واحد ، فلا يوجد حقان ، بل حق وباطل ، وإن وجد الصراع فإنه لا يطول بينهما ؛ لأن الباطل زهوق بطبيعته ، وإن وجدت حرب بين باطلين ، فالسماء توضح لنا أنه لا يوجد باطل منهما أولى بأن ينصره الله على الآخر ؛ بل يترك سبحانه هذا الصراع لأسبابهم ؛ مما يطيل أمد الحرب.

وحين شرع الله الأشهر الحرم ، ضمن الناس مطلوبات السلام الدائم ؛ لأن الناس تنهكهم الحرب ويحبون أن يرتاحوا منها ، فإذا جاءت الأشهر الحرم كانت فرصة للناس ليوقفوا الحرب ، دون أن يشعر أحدهم بالذل والهوان والهزيمة. ونحن نلجأ إلى ذلك أحياناً ، فإذا كنا فى بيت يسكنه عدد من الناس - كما يحدث في الريف - وسُرق شيء ثمين من هذا البيت ، والسارق من السكان ونريد منه أن يعيده دونَ أن ينكشف أمره فهم يحددون مكاناً معيناً ، وكل واحد من سكان البيت يأتى ليلاً ويضع حفنة من التراب فى هذا المكان ، لعل السارق يضع ما سرقه بين حفنة التراب ، وهو بذلك يأخذ فرصة من مجتمعه الصغير ليعيد ما سرقه دون أن يعرفه أحد ، وفى هذا ستر له فلا ينفضح أمام الناس.

والأشهر الحرم فرصة للسلام دون أن ينفضح أحد من الأطراف المتحاربة أمام الناس بأنه ضعيف أو غير قادر على الاستمرار فى الحرب ، وتتوقف خلالها الحرب وقد ستر الله كل أطرافها ، وتقوى خلالها فرص أكبر للسلام والصلح ، وبذلك تكون فرص السلام أكبر من فرص الحرب بكثير.

ولكن ماذا يحدث عندما يعتدى عصاة غير مطيعين لله على المؤمنين فى الأشهر الحرم التى حرم الله القتال فيها ؟ إن الحق سبحانه لا يعنى بتشريعاته أبداً أن تكون مصدر إذلال للمؤمنين وإعزاز للكافرين ؛ ولذلك ينبهنا إلى أننا يجب ألا نسمح لأعداء الله بأن يستغلوا حرمة الأشهر الحرم ليتمادوا

فى العدوان على المؤمنين ، فأباح للمؤمنين القتال فى هذه الأشهر إذا قاتلهم الكفار فيها ، وكذلك فى الأماكن المحرَّم فيها القتال ، فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... (٢١٧)﴾

[البقرة]

وهكذا أباح الله القتال فى الشهر الحرام ليدافع المؤمنون فيه عن أنفسهم إذا بدأهم الكفار بالقتال ، وأباح الحق سبحانه أيضاً القتال فى المسجد الحرام إذا قام الكفار بقتال المؤمنين فيه ، رغم أننا نعلم أن تحريم القتال فى المسجد الحرام هو تحريم دائم ، ولكن الحق سبحانه وضع استثناء فقال:

﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة]

وهكذا جاء التقنين الإلهى ليحمى المؤمنين من طغيان الكافرين ، فالمؤمنون يلتزمون بعدم القتال فى الأشهر الحرم كما أمر الله ؛ بشرط التزام الطرف الآخر الذى يقاتلهم ، فإن لم يلتزم الكفار بهذا التحريم ، فسبحانه لا يترك المؤمنين للهزيمة ، وهكذا شاء الحق أن يضع التشريعات المناسبة لهذا الموقف . فإن احترمها الطرفان كان بها ، أما إن خالفها الكفار فقد سمح الله للمؤمنين بالقتال.

وهنا يقول سبحانه:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ والكتاب يطلق على الشيء المكتوب المدوَّن ، ولا يُدوَّن الكلام إلا إذا كانت له أهمية ما ، أما الأحاديث التى تتم بين الناس فهم لا يكتبونها ولا تُدوَّن . بينما الكلام المهم وحده هو الذى يُكتب حتى يكون حجة فى الاستشهاد به فى حالة وجود خلاف.

ولكن أين ﴿كتاب الله﴾ الذى كُتبَ فيه هذا ؟

إنه اللوح المحفوظ عند الله ، والمهيمن على كل الكتب التى نزلت فى مواكب الرسل ، ويقصد بالكتاب - أيضاً - القرآن الكريم الذى نزلت فيه هذه الآية ، وقد جاء القرآن جامعاً لمنهج الله بدءاً بآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وتغير فى القرآن كثير من الأحكام الموجودة فى الرسالات السابقة ، أما العقائد فهى واحدة . كما أن القرآن قد تضمن الحقائق الكونية التى لم تكن معروفة وقت نزوله ، والمثال هو قوله الحق :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (١٨٩)﴾ [البقرة]

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (٥)﴾ [يونس]

فكأنه ربط السنين والحساب بالقمر ، وهذا الحساب هو من ضمن إعجازات الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن العالم قد بحث عن أدق حساب للزمن ، فلم يجد أدق من حساب القمر ، وكل الأحياء المائية تعتمد فى حسابها على الحساب القمرى ، والله سبحانه يريد منا حين نقرأ كتاباً أن نتمعن فى وضع الألفاظ فى موضعها . فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وبعد ذلك يأتى باستثناء هو : ﴿ مِنْهَا﴾ أى من الاثنى عشر شهراً ﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الله : " فيها " بدلاً من ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ما دام قد قال من قبل : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ؟

ونقـول: إن الحق ينهى عن الظلم العـام فى كل الشـهـور ، وإن كـان المقصود الأشهر الحرم الأربعة ، فالمقصود النهى عن ظلم الحرب . وهنا قاعدة لغـوية يجب أن نلتفت إليهـا ؛ وعندنا فى اللـغة جمع قلة وجمع كثرة ؛ جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، ويختلط الأمر على بعض الناس فى مسألة جمع القلة وجمع الكثرة ، وجمع التكسير وجمع الصحيح . فجمع القلة وجمع الكثرة ، غير جمع التكسير ، والجمع الصحيح ؛ لأن التكسير هو أن تكسر بنية الكلمة ، فمثلاً بيت جمعها بيوت ، ورسول جمعها رسل ؛ هنا كسرْتَ بنية الكلمة أى: غيَّرتها.

أما إن قلت : " مسلم " فجمعها " مسلمون " ، وهنا تضيف "واواً ونوناً" ، ولكن كلمة " مسلم " صحيحة ، أى أننا لم نكسر المفرد . ولكن إن قلت: " سفينة " وجمعها " سفن " تكون قد كسرت المفرد.

وقول الحق هنا: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فما دام العدد هو اثنا عشر شهراً تكون قد زادت عن جمع القلة ؛ لأن جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، وجمع القلة يعاملونه معاملة الجماعة . وإن زاد على عشرة يعـاملونه معـاملة المفـرد المؤنث ، مثل وضع الشهور الأربعة المحرمة فى كتـاب الله ، ولذلك قـال: ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وجـاء هنـا بـ"نون النسوة" للجمع . والقاعدة - كما قلنا - إن جمع القلة يعامل معاملة الجماعة ، فإن كان جمع كثرة عـومل معاملة المفرد المؤنث ؛ لأن الفرد يكون معصوماً بالجماعة ، أى أنه بمفرده ضعيف. فإن وجد جماعة ينتمى إليها فهو يُحسُّ بالقوة.

إذن : فالفـرد يعصم بالجمـاعة ، وبهذا تعامل الجمـاعة كلها كهيئة واحدة ، وهناك شاعر يستهزىء بقوة جماعة ما ، فيقول:

لاَ أُبَالِي بِجَمْعِهِنَّ فَجَمْـ ـعُهُنَّ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثِ

إذن : فكل جمع يكون مؤنثاً ، وهذا ما ينطبق على قوله سبحانه وتعالى هنا : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ . وأكرر : إن أردت الظلم العام فإن الله قد حرم الظلم فى كل شهور السنة ؛ سواء ظلمك لنفسك أم ظلمك للناس ، وإن أردتَ من معنى الكلام تحريم الحرب فى الأشهر الحرم تكون : ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قد أتت بالمؤنث .

ومعنى قوله : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : إياكم أن تظنوا أن مخالفتكم لمنهج الله يحدث منها شيء يضر الحق سبحانه ، فكل ما يحدث من ظلمكم لأنفسكم هو أن تضروا أنفسكم أو غيركم ، لكن لن يضر أحدكم الله ؛ لأن صفات الله فى الكون لا تتأثر أطاع الخلق أم عَصَوا . ولذلك فإن اتباع منهج الله هو أمر لصالح الناس ، لصالحنا نحن ، فانصرافنا عن المنهج لا يضر الله سبحانه شيئاً ولكن يضرنا نحن ، فكل ما أنزله الله من قيم هو لصالحنا حرباً وسلاماً ، وتحريماً وتحليلاً .

ولكن لماذا خصَّ الحق سبحانه الشمس بحساب اليوم ، والقمر بحساب الشهر ؟ وأقول : لأن الله سبحانه يريد أن يوزع الفضل على كل الزمن ، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به . فلو حسبت الشهور بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام فى أشهر الصيف دائماً ، ومن يعيش مثلاً فى بلاد باردة إن ذهب إلى الحج صيفاً يتعرض لأخطار شديدة ، فكأنه ليس هناك عدل بين الذين يعيشون فى مناطق باردة ، والذين يعيشون فى مناطق حارة فى أداء مناسك الحج ، فلو كان ميعاد الحج هو الصيف دائماً ، فسوف يؤديه الذين يعيشون فى المناطق الحارة بسهولة ، بينما يؤديه من يحيا فى المناطق الباردة بصعوبة ، ولتمام عدل الله بين خلقه نجده سبحانه قد أدار الأشهر القمرية فى السنة الميلادية ، فلا يأتى الحج أبداً فى طقس واحد ، وبذلك تستوى كل البيئات وكل الناس فى أحكام الله .

وأيضا صوم رمضان لو كان يأتى فى الصيف دائماً ، لوجدنا بعض الناس سيصومون ثمانى أو تسع ساعات ، والذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون عشرين ساعة فى اليوم ، ولكن مجىء رمضان فى فصول السنة كلها يجعل أولئك الذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون مرة تسع عشرة ساعة مثلاً ، ومرة ساعتين أو ثلاثاً ، وهذه تعوض تلك ، فيتم العدل ، وإذا أخذنا متوسط ساعات الصيام بالنسبة لهؤلاء الناس على مدار السنة ، نجد أن فترات صومهم فترة تسع عشرة ساعة وفترات ثلاث ساعات ، وبذلك يتساوون فى المتوسط مع أولئك الذين يصومون ثمانى أو تسع ساعات يومياً .

ونجد بالحساب أن تقويم الهلال ينقص عن تقويم الشمس بمقدار أحد عشر يوماً وثلث يوم كل عام ، ويكون الفرق عاماً كاملاً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام ، أى أن رمضان يأتى مرة فى يناير ومرة فى فبراير ومرة فى مارس ، وكذلك الحج ، وبذلك تتكافأ الفرص بين المؤمنين جميعاً ، فالذين يصومون فى الصيف المعروف بيومه الطويل ، يصومون فى الشتاء ويومه قصير . والذين يعانون من الصوم فى حرارة الجو ، يصومون أيضاً فى برد الشتاء ، وهكذا يدور رمضان والحج فى شهور العام كله ، وبذلك يتم عدل الله على الجميع بالتشريع الحق ، ويدور التكليف مشقة ويُسْراً وصعوبة وسهولة على جميع المؤمنين .

وإذا نظرنا إلى ربط اليوم بالشمس نجد أن الحق سبحانه وتعالى الذى ربط أوقات الصلاة بالشمس ، كفل لها الدوام التكليفى ، لماذا ؟

لأن القمر نراه أياماً ، ولكننا لا نراه فى أيام المحاق ، فلو ربطنا الصلاة بالقمر لضاع منا الدوام ، مضافاً إلى ذلك أن القمر يظهر لنا فى أوقات غير متساوية ؛ فعندما يكون هلالاً لايظهر للعين فى الأفق إلا دقائق معدودة ،

ولكن الشمس تشرق كل يوم فى وقت محدد، وتغيب كل يوم فى وقت محدد ، وهى بضوئها ظاهرة للناس كل الناس من الشروق إلى الغروب ، فلا يجدون مشقة في رؤيتها . ولذلك فربْطُ الصلاة بالشمس فيه يُسْر التكليف ودوامه ، وكما قال رسول الله ﷺ : " الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين "[1] وهى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن الفقير تسقط عنه الزكاة ، والمريض يسقط عنه الصوم ، وغير المستطيع يسقط عنه الحج ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن تقال مرة واحدة فى العمر ، ولكن إقامة الصلاة لا تسقط أبداً . إذن فهى عماد الدين ، ولذلك تتكرر خمس مرات يومياً لكل أهل الأرض ، فالصبح فى دولة قد يكون ظهراً فى دولة ثانية ، وعصراً فى دولة ثالثة ومغرباً فى دولة رابعة وعشاء فى دولة خامسة ؛وذلك بسبب فروق التوقيت بين دول العالم ، وهكذا تكون فى كل لحظة من الزمن جميع أوقات الصلاة قائمة على الأرض ، فيظل الله سبحانه وتعالى معبوداً بالصلاة فى كل الزمن فى كل بقاع الأرض . وهكذا يرتفع الأذان : الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله فى كل لحظة على الأرض.

قد نجد رجلاً أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة ، لكن له إشراقات نورانية ، أفاض الله عليه يقول: يا زمن وفيكَ كل الزمن ، أى يا فجر وفيك كل أوقات الصلاة على سطح الأرض . ولذلك فظاهر الأمر أن الصلوات خمس ، والحقيقة أن الصلاة دائمة على وجه الأرض فى كل

(١) حديث ضعيف . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٣٩) : « رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً » قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٤٧): « قال الحاكم: عكرمة لم يسمع من عمر . قال: ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط: إنه غير معروف». وقال النووى فى التنقيح: منكر باطل . ورده ابن حجر فى التلخيص (١/ ١٧٣): وليس كذلك ، بل رواه أبو نعيم شيخ البخارى فى كتاب الصلاة بلفظ : « الصلاة عمود الدين » وهو مرسل رجاله ثقات .

ثانية ، ولا يوجد جزء من الزمن إلا والله معبود فيه بعبادات كل الزمن ، أى أنه فى كل لحظة تمر نجد الله معبوداً بالصلوات الخمس على ظهر الأرض . وهذا سبب ربط الصلاة بالشمس.

وإذا عرفنا هذه الحقيقة ، وعلمنا أن الكون كله يصلى لله فى كل لحظة من الزمن ، فإننا نعلم أن القرآن يتسع لأشياء كثيرة ، وأن كل جيل يأخذ من القرآن على قدر عقله ، فإذا ارتقى العقل أعطى القرآن عطاءً جديداً. وهذا ما يؤكد أن آيات القرآن يتسع إدراكها فى الذهن كلما مر الزمن ، فنتنبه إلى معان جديدة لم نكن ندركها .

وعندما يأتى المستشرقون ليقولوا : إن فى القرآن تناقضاً فى الكونيات .

نقول لهم : مستحيل .

فيقولون : لقد جاء فى القرآن:

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الشعراء]

ويقول :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن]

ويقول :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ... (٤٠) ﴾ [المعارج]

وبين هذه الآيات تناقض ظاهر .

ونرد : إن التقدم العلمى جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات ، فكل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، هذه هى النظرة العامة ، إذن فقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ صحيح ، ثم عرفنا أن الشمس

حين تشرق عندى ، تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان . ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر . وفى كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ؛ لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة .

فإذا سأل أحدهم : لماذا تخصون القمر لحساب الزمن وتخصون الشمس لحساب اليوم ؟ نقول : إن الشمس مرتبطة بعلامة يومية ظاهرة وهى النهار ، واختفاؤها عنك مرتبط بعلامة يومية ظاهرة وهى الليل . ولكن القمر غير مرتبط بعلامة يومية ، صحيح أن القمر موجود دائماً ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدركه أو يراه إلا فى أوقات محددة .

بعض الناس يقول : إذا كان المقصود بهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - هو بيان الأشهر الأربعة الحرم ، فما فائدة باقى أشهر السنة ؟

ونقول : إنك لن تستطيع أن تحدد الأشهر الحرم إلا من خلال بيان وتوضيح أمر السنة ومعرفة عدد أشهرها ، وهذا أمر ضرورى أيضاً حتى تستطيع أن تحدد الأشهر الأربعة الحرم فى العام . وإلا كيف يمكن أن نميز هذه الأشهر وزمنها ؟ لابد لنا إذن من أن نعلم أن هناك عاماً ، وأن العام فيه اثنا عشر شهراً لنستطيع أن نحدد الأشهر الحرم . والأشهر الحرم منها ثلاثة متتابعة وشهر فرد ، والأشهر المتتابعة هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر رجب هو الشهر الفرد . وتحديد الحق لهذه الأشهر الأربعة يعنى أنها تتميز بخصوصيات ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد أن تكون هذه الشهور فى أى وقت من السنة لتركها لنا لنحددها بمعرفتنا فنختار

أى أربعة أشهر على هوانا ،لنمتنع فيها عن القتال ، ولكن كون الله تبارك وتعالى حددها فذلك لخصوصيات فيها . جاء البعض وقال: ما دام سبحانه وتعالى قد جعل الشهور اثنى عشر شهراً وجعل منها أربعة حرماً ، ونحن نريد أن نحارب فى شهر المحرم فلنفعل ذلك ونمتنع عن القتال فى شهر آخر غيره ، وبذلك نكون قد حافظنا على عدد الأشهر الحرم وهى أربعة كما حددها الله .

ونقول: إنكم حافظتم على العدد ولم تحافظوا على المعدود . ولو أن رسول الله ﷺ لم يبين الأربعة الأشهر المقصودة بالآية الكريمة من الاثنى عشر شهراً ، لأصبح من حق كل جماعة أن تختار ما تريده من أشهر السنة ، ولكنه ﷺ خصصها ؛ لأننا علمنا بذلك كيف نحافظ على الفرق بين العدد والمعدود .

إن مسألة العدد والمعدود حَلَّتْ لنا إشكالات كثيرة ، منها إشكالات أثارها المستشرقون الذين يريدون أن يسيئوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن الزواج كان مطلقاً عند العرب ، ثم حدد الله سبحانه وتعالى عدد الزوجات بأربع ، وأمر النبى عليه الصلاة والسلام الذين كانوا قد تزوجوا بأكثر من أربع زوجات أن يمسك الواحد منهم أربعاً ويفارق الباقيات [1] ، وأضاف المستشرقون تساؤلاً: إذا كان الرسول قد شرع للناس ، فلماذا لم يطبق هذا الأمر على نفسه ، ولماذا اتخذ تسع زوجات ؟

ونقول: إننا إذا قمنا بعملية حسابية منصفة ، لوجدنا أنها ليست توسعة لرسول الله ﷺ وإنما هى تضييق عليه ، فأنت حين تأخذها من ناحية العدد فقط تقول: إن رسول الله ﷺ أخذ تسع زوجات وأمته أخذت أربعاً ، ولكنك لم تلاحظ مع العدد المعدود ، أى أنه إذا ماتت زوجاتك الأربع

(١) عن ابن عمر قال: أسلم غيلان بن سلمة الثقفى وعنده عشر نسوة ، فقال له النبى ﷺ : « خذ منهن أربعاً » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤) ، وابن ماجه (١٩٥٣) والدار قطنى فى سننه (٣/ ٢٦٩) .
أما لفظ الإمساك والمفارقة فقد ورد فى حديث لابن عباس أخرجه الدار قطنى (٣/ ٢٦٩) . وفيه الواقدى وهو متفق على ضعفه .

أحلت لك أربع أخريات ، وإن ماتت واحدة أحلت لك أخرى ، إذن فأنت - كمسلم - عندك عدد لا معدود ، بحيث إذا طلَّقْتَ واحدة أو اثنتين حلَّت لك زوجة أو زوجتان أخريان ، فأنت مُقيَّد بالعدد ، ولكن المعدود أنت حُرٌّ فيه . أما رسول الله ﷺ فقد نزلت فيه هذه الآية الكريمة :

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نجد أن التشريع ضَيَّق على رسول الله ﷺ فى المعدود . وكان استثناؤه عليه الصلاة والسلام فى العدد للتشريع ، فقد كان الرسول ﷺ يتزوج بإرادة التشريع التى يشاؤها الله .

وسبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وعرفنا أن قوله سبحانه : ﴿ فى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ معناها اللوح المحفوظ أو القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ معناه : أنها مسألة لم تطرأ على الكون ، ولكنها محسوبة من قبل أن يُخلقَ الإنسان . فهى إذن مسألة من النظام الكونى الذى خُلق عليه الكون . وهو سبحانه قد خلق الكون بدقة وإحكام ، فكأن الحق يريد أن يلفتنا إلى أن من مهام الشمس والقمر أن يكونا حساباً للزمن ؛ لليوم والشهر والعام ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أى : أنهما خُلقَا بحساب دقيق، ويقول سبحانه:

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام: ٩٦]

أى : أنه سبحانه يطالبنا بأن نستخدم الشمس والقمر حساباً لنا . وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشيء الذى تريد أن تتخذه حساباً لك ، لابد أن يكون مصنوعاً بحساب دقيق . ولذلك فإن الساعة مثلاً إن لم تكن مصنوعة بدقة فإنها لا تصلح قياساً للوقت ؛ لأنها تقدم أو تؤخر . ولكن إن كانت مصنوعة بحساب دقيق فهى تعطيك الزمن الدقيق . إذن : فدقة قياس الزمن تعتمد أساساً على دقة صناعة آلات القياس.

وقبل أن يُنزِلَ الحق هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، كان العرب يعترفون بالأشهر الأربعة الحرم ، ولكنهم كانوا يغيِّرون فى مواعيدها ، فكانت الجماعة منهم تقاتل الأخرى ، فإذا ما أحسوا بقرب انتصارهم وجاءت الأشهر الحرم قالوا: نستبدل شهراً بشهر ، أى نقاتل فى الشهر الحرام ، ثم نأخذ شهراً آخر نمتنع عن القتال فيه ، وحسبوا أنهم ماداموا قد حافظوا على العدد يكونون بذلك قد أدوا مطلوبات الله ، ولكنهم نسوا أنهم لم يحافظوا على المعدود ، ونسوا أن الدين مجموعة من القيم التى لابد أن نؤمن بها ونطبقها.

والإيمان - كما نعلم - هو انقياد وتسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا اختيار لنا فيه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة ، وهنا يجب أن يقف الاختيار البشرى ، بمعنى أنه لا أحد يملك تعديل مرادات الله بأى شكل من الأشكال ؛ لأننا فى حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منا ، نقول له: وكَّلْناكَ فى هذا الأمر ، وسنسير وراءك فيما تقرره . ومعنى هذا أننا سنسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم.

إننا لا نعطى أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم فى تصرفه .

وإن سألك أحد من الناس : لماذا تتصرف فى ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير فى هذه المسائل ، وهذا دليل منك على أنك واثق فى علمه ، وواثق فى صدقه ، وواثق فى حكمته .

والمثال الحى المتجدد أمامنا هو سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عندما قيل له : إن رسول الله ﷺ أعلن أنه نبى الله ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قد قال فقد صدق . قال أبو بكر رضى الله عنه هذا القول ؛ لأنه عرف ولمس أن رسول الله ﷺ لم يكذب قط فى كل الأحداث السابقة ، فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يكذب على أهل الأرض أيكذب على السماء ؟ [1] طبعاً هذا غير معقول .

وأنت لا تسلم زمام أمرك للمساوى لك إلا إذا كانت هناك مقدمات أثبتت أنه أعلى منك فى ناحية معينة ، صحيح أنه مساويك فى الفردية وفى الذاتية ، ولكنه أعلى منك علماً فى المجال الذى يتفوق فيه . فما يقوله تنفذه بلا نقاش لأنك وثقت فى علمه . وأنت إذا مرضت - لا قدر الله - وكان هناك طبيب تثق فى علمه وقال لك : خذ هذا الدواء ؛ أتناقشه أو تجادله ؟ طبعاً لا ، بل تفعل ما يأمرك به بلا نقاش .

فإذا سألك أحدهم : لماذا تتناول هذا الدواء ؟ تقول : لقد كتبه لى الطبيب الذى أثق فيه . وهذا يكفى كحيثية للتنفيذ .

(١) جاء هذا فيما وقفت عليه خاصاً بحديث الإسراء ، وقد سبق تخريجه ، وهو حديث عائشة قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سمى أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٦٢) وصححه وأقره الذهبى .

فإذا جئنا إلى الله سبحانه الذى أعدَّ لنا هذا الكون وأنزل إلينا منهجاً وطالبنا أن نُسلمَ له وجوهنا ، وأن نفعل ما يأمرنا به فى كل أمور الحياة ، فإن احتجنا إلى حكمة فهو الحكيم وحده ، وإن احتجنا إلى قدرة فهو القادر دائماً ، وإذا احتجنا إلى قهر فهو القاهر فوق عباده ، وإن احتجنا إلى رزق فهو الرزاق ، وعنده كنوز السماوات والأرض . أيوجد من هو أحق من الحق سبحانه لنُسْلمَ زمامنا له ونفعل ما يأمرنا به ؟ طبعاً لا يوجد ، وإذا سألنا أحد: لماذا نتبع هذا المنهج ؟ نقول : إنه سبحانه قد أمرنا باتباعه . وهذا هو الإسلام الحقيقى ؛ أن تسلم اختيارك فى الحياة لمرادات الخالق الأعلى ، فالدين معناه الالتزام والانقياد لله ، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى قَيِّم على كل أمور حياتنا ، والدليل على ذلك قائم فيما تحدثنا عنه ، فمادام الله سبحانه وتعالى قد قال ، فنحن نفعل . إذن : فالدين قَيِّم علينا . والدين قَيِّم أيضاً على غيره من الرسالات السماوية ، أى مُهَيْمنٌ عليها ، وفى هذا يقول الحق:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... (٤٨)﴾ [المائدة]

حددت الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - أشهراً حُرماً يحرم فيها القتال وحذرت من الظلم بالحرب أو غيرها ، وقد يقال : إن معنى هذا أن تضعف حمية الحرب عند من يريد الحرب ضد الباطل ، فنرى الباطل أمامنا خلال الأشهر الحرم ولا نحارب.

نقول: إن هذا غير صحيح ، ففترة السلام هذه تكون شَحْذاً لهمَم المقاتلين ضد الكفر والظلم ؛ لأنك قد ترى الباطل أمامك لكنك تمتثل لأمر الله فى وقف القتال ، فإن ذلك يزيد الانفعال الذى يحدثه الباطل فى تحديه

للنفس المؤمنة ، فإذا انتهت الأشهر الحرم كنت أكثر حماسة . تماماً كالإنسان الحليم الذى يرى إنساناً يضايقه باستمرار فيصبر عليه شهراً واثنين وثلاثة ، فإذا نفد صبره كان غضبه قوياً شديداً ، وقتاله شرساً ، ولذلك قيل : « اتقوا غضب الحليم » ؛ لأن غضبه أقوى من غضب أى إنسان آخر . وكذلك يكون حلْم المؤمن على الكافر فى الأشهر الحرم ؛ شحذاً لهمته إذا استمر الباطل فى التحدى ، وفى هذا تحذير للمسلمين من أن تضعف فى نفوسهم فكرة القتال وعزيمتهم فيه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾

وكلمة ﴿ **كَافَّةً** ﴾ هنا سبقها أمران : ﴿ **قَاتِلُوا** ﴾ فإلى أى طرف ترجع ﴿ **كَافَّةً** ﴾ هنا ؟ هل تُرجعها إلى المؤمنين المقاتلين ، أم إلى المقاتلين من الكفار ؟ وهذا إثراء فى الأداء القرآنى فى إيجاد اللفظ الذى يمكن أن نضعه هنا ونضعه هناك فيعطيك المعنى .

ولكن هل يريدنا الحق أن نقاتل المشركين حالة كوننا - نحن المؤمنين - كافة ؟ أم نقاتل المشركين حالة كونهم كافة ؟ . إن « **كَافَّةً** » كما نعرف لفظ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى ، فالرجل كافة ، والرجلان كافة ، والقوم كافة ، وهى مأخوذة من الكف . وتطلق أيضاً على حافة الشىء لأنها منعت امتداده إلى حيز غيره . وفى لغة من يقومون بحياكة الملابس يقال : « كافة الثوب » حين يكون الثوب قد تنسل ، فيقوم الحائك بمنع التنسيل بتكفيف الثوب .

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً** ﴾ أى : يـٰأيها المؤمنون كونوا جميعاً فى قتال المشركين . وهى تصلح للفرد ، أى : للمقاتل الواحد ، وللمقاتليْن ، ولجماعة المقاتلين .

وقوله : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ ذلك أن الباطل يتجمع مع الباطل دائماً ، والمثال الواضح فى السيرة أن يهود المدينة تحالفوا

مع الكفار ضد المسلمين ، فكما أن الباطل يجتمع مع بعضه البعض فاجمعوا أنتم أيها المؤمنون وأصحاب الحق قوتكم لتواجهوا باطل الكفر والشرك.

ويقول الإمام على كرم الله وجهه: « أعجب كل العجب من تضافر الناس على باطلهم وفشلكم عن حقكم »[1] ويتعجب الإمام على رضى الله عنه من أن أهل الحق يفرطون فى حقهم رغم اجتماع أهل الباطل على باطلهم . ويعطينا القرآن صورة من تجمُّع أهل الباطل فى قول اليهود لكفار مكة:

﴿ هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ... (٥١) ﴾ [النساء]

أى أن اليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه[2]، قالوا ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرت لهم أن رسول الله ﷺ سيأتى بالدين الخاتم حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين: لقد أطل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . كذلك فى كتب أهل الكتاب نبأ رسول الله وأوصافه وزمانه. وعندما تحقق ما فى كتبهم كفروا به واجتمعوا مع أهل الباطل.

وهنا يوضح لنا الحق: ما دام الباطل قد اجتمع عليكم وأنتم على الحق فلابد أن تجتمعوا على دحض الباطل وإزهاقه؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

(١) من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال: « فيا عجباً من جد هؤلاء القوم فى باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم هدفاً يرمى، وفيئاً ينتهب، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزَوْنَ ولا تَغزُونَ ، ويعصى الله وترضون ». انظر خطبته بكاملها فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيقى. نشر دار الروضة - القاهرة.

(٢) وذلك أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد. فقال أبو سفيان: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق نحن أم محمد ؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد. ذكره القرطبى فى تفسير الآية ٥١ من سورة النساء.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
إذن: فالله يأمر المؤمنين بأن يجتمعوا على قتال الكافرين، ولأن الله مع الذين آمنوا؛ لذلك فهو ينصر المؤمنين، وإذا وُجدَ الله مع قوم ولم يوجد مع آخرين، فأيُّ الكفتين أرجح؟ لابد من رجحان كفة المؤمنين. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

والعلم - كما قلنا - حكم يقين عليه دليل، أى لا يحتاج إلى دليل؛ لأن العلم هو أن تأتى بقضية غير معلومة، ثم تقيم الدليل عليها لتصبح يقيناً.

وإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ فالعلم هنا ينتقل من علم يقين إلى عين يقين. والعلم - كما نعرف - قضية معلومة فى النفس يؤيدها الواقع وتستطيع أن تقيم عليها الدليل. فإذا علمت بشىء أخبرت به، ويقينك بما علمت يكون على قدر ثقتك بمن أخبرك.

والمثال: حين قيل لأبى بكر رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: إنه أُسْرِىَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعُرِجَ به إلى السماء السابعة، هنا قال الصدِّيق: إن كان قد قال فقد صدق [1]، وكانت هذه هى ثقته فى القائل، وهو يستمد منها الثقة فيما قال وروى.

وحينما أخبر رسول الله ﷺ سيدتنا خديجة رضى الله عنها بخبر الوحى وأبدى خوفه مما يرى، قالت: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصلُ الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكْسبُ المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين علَى نوائب الحق» [2]، وهى بذلك قد أخذت من المقدمات حيثيات الحكم وكانت أول مجتهدة فى الإسلام عملت بالقياس. فقد قاست الحاضر بالماضى.

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٩٠.
(٢) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، وستة مواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) واللفظ للبخارى.
- تحمل الكل: أى تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق.
- تكسب المعدوم: تعطى المعدوم مالاً مالاً، والمعدوم مكارم وأخلاقاً أخلاقاً حسنة طيبة.
- تقرى الضيف: أى أنك كريم جواد تطعم الضيف طعام القرى.
- تعين على نوائب الحق: حوادث الخير والشر.

وعندما يقول الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيكفينا أن يكون هذا كلام الله سبحانه ليكون يقيناً فى نفوسنا، وهناك علم يقين يأتيك ممن تثق فى علمه وصدقه، وأنت إن رأيت الشيء الذى أخبرت به وشاهدته يصبح عين يقين، فإذا اختبرته وعشت فيه يصبح حقَّ يقين.

وحين قال الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وجدنا بعض المؤمنين قد أخذوها على أنها علم يقين ، أو عين يقين ، أو حق يقين ؛ لأنهم شاهدوا ذلك فى المعارك حين كانوا قلة ، فمن أخذ كلام الله دون مناقشة عقلية - لأن الله هو القائل - أخذه علم يقين . والذى أخذ الكلام على أنه يصل إلى درجة المشاهدة أخذه على أنه حق يقين ، والذى أخذ الكلام كأنه عايشه فهذا عين يقين ، ولكى نعرف هذه المنازل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) ﴾ [التكاثر]

وهذه أولى الدرجات: علم يقين؛ لأنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

أى : أنكم فى الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين ، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أى مشاهدة بالعين . وفى هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما: علم اليقين وعين اليقين ، ففى الآخرة سوف يُضرب الصراط على جهنم ، ويرى الناس - كل الناس ، المؤمن منهم والكافر - نار جهنم ، وهم يمرون فوق الصراط ، ويرونها مشتعلة متأججة ،وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها ، يعرف كيف نجاه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحه ؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب،

وفرحة بالنعم وبالمنعم ، ويقول المؤمن : الحمد لله الذى أنقذنى من النار . وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ... (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير ، ودخول الجنة فضل أكبر ، والحق هو القائل :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مريم]

ويَرِدُ الشىء أى يصل إليه دون أن يدخل فيه [1] ، ويقال : ورد الماء أى وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه . إذن فكل منا سوف يرى جهنم ، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه ؛ لأنه أنجاه منها ، ويندم الكافر ؛ لأنه يُعذب فيها .

وقد ضربت من قبل مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقراءة عن مدينة نيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارىء أنها مبنية على عدة جزر ، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ، وهذه القراءة هى علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو

---

(١) اختلف الناس فى الورود على أقوال :

١ - الورود : الدخول . عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم . . ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٧) وصححه وأقره الذهبى .

٢ - الورود : الممر على الصراط . ويستدل أصحابه بحديث المرور على الصراط .

٣ - الورود : ورود إشراف واطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ، ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة . ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أى : أشرف عليه لا أنه دخله .

٤ - ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا ، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها .

٥ - الورود : النظر إليها فى القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها من قدر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى ، واحتجوا بحديث ابن عمر « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » .

وقد جمع الإمام القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٠٧) بين هذه الأقوال فقال : ظاهر الورود الدخول ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين ، قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنَّا نرد النار ؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رماداً .

يكون ذلك عين يقين ، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعايش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين .

وفى سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة فى سورة الواقعة ، فقال :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ [الواقعة]

وحق اليقين هو آخر مراحل العلم ، والإنسان قد يكابر فى حقيقة ما حين يقرؤها ، وقد يجادل فى حقيقة يشاهدها ، ولكنه لا يستطيع أن يكابر فى واقع يعيشه ، وقد حدث ذلك وحملته لنا سطور الكتب عن سيدنا عمر وقد قال عن أحد المعارك : « وحينما شهرت سيفى لأقصف رأس فلان ؛ وجدت شيئاً سبقنى إليه وقصف رأسه »[1] أى : هناك من شاهد ذلك بنفسه .

وبعد ذلك يعطى الله الحكم فيمن يُغيِّر الأشهر الحرم أو يُبدلها فيقدمها شهراً ، أو يؤخرها شهراً ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾

(١) لم أقف على أثر عمر رضى الله عنه هذا رغم طول بحث ، ولكن وقع من حديث أبى واقد الليثى قال : « إنى لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى » ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح الباري (٧/ ٣١٣) وعزاه لابن إسحاق .